مجلة أبعاد
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X
مجلد 11، العدد 01 (خ)، 2024

تفكيك مقولات الخطاب الكولونيالي في فلسفة فرانز فانون

Deconstruction of The Statements Colonial Discourse In The Philosophy of Frantz Fanon

عربي ساردي علاء الدين*
Arbi Sardi Alaa Eddine
arbialladin433@gmail.com
جامعة جيلالي ليابس-سيدي بلعباس – (الجزائر)
فلسفة
مخبر الدراسات والأبحاث الفلسفية-جامعة سيدي بلعباس

معرف مصطفى Marref Mustapha
musphilos@gmail.com
جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس – (الجزائر)
فلسفة
مخبر الدراسات والأبحاث الفلسفية- جامعة سيدي بلعباس

****

تاريخ الإرسال: 2024/02/03	تاريخ القبول: 2024/08/02	تاريخ النشر: 2024/08/04

ملخص:

سنعرض في هذه الدراسة الكيفية التي كشف من خلالها فرانز فانون عن أهم المقولات التي يتأسس عليها الخطاب الكولونيالي، وذلك من خلال رصد جذور نشأتها داخل الثقافة الغربية، وكيفية تطور الوعي بهذا الخطاب وتداعياته على الآخر، انطلاقا من تفكيك دلالاته وأثاره على الذات، ومحتوى وعمق هذه المقولات، فالعالم الكولونيالي بخطاباته العنيفة والعنصرية، يصنع صدمات وتشوهات على مستوى البنية النفسية، من أجل إخضاعها وقذفها في عالم مغاير لعالمها الحقيقي، حيث تَحْدُث عملية اغتراب للذات، عن وجودها الأصلي داخل الفضاء الثقافي، وتبقي على كينونته كعبد تابع للحضارة الغربية وهيمنتها.

الكلمات المفتاحية: فرانز فانون؛ الخطاب الكولونيالي؛ العنصرية؛ العنف؛ الاغتراب

Abstract: In This Study, we will show how Frantz Fanon revealed the most important statements on which colonial discourse is based, by observing the roots of its emergence within Western culture, And how consciousness develops of this discourse and its and its impact on the other, from deconstructing its connotations and effects on the self, and the content and depth of these statements. The colonial world, with its violent and racist discourse, creates psychological traumas and distortions at the immediate level, in order to subjugate them and throw them into a world different than their real world, where these create a process of alienation of the self from his original existence within the cultural

* المرلف المرسل: arbialladin433@gmail.com

structure, and preserve his existence as a slave subordinate to western civilization and its hergemony.

Keywords: Frantz Fanon; Colonial Discourse; Racism; Violence; Alienation.

1. مقدمة:

أصبح من المعتاد في الدراسات الفلسفية والأدبية، إلقاء كل ما هو معقد في فراغ "الما بعد Post"،التي أسست لنا حقولا معرفية يعبر عنها "بالمابعديات":ما بعد الحداثة، ما بعد البنيوية، ما بعد النسوية، وغير ذلك، وصولا إلى أعقد سلسلة من الأحداث التي تعتبر الأكثر إثارة في القرن العشرين، وهي فكرة كيفية تفكيك الخطاب الكولونيالي، كإشكالية معرفية داخل حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية، إذ أخذ هذا الخطاب شكل الإمبراطورية الأوروبية، في مختلف مجالاتها المعرفية الحداثية والأنطولوجية الجغرافية، والتي تسببت في آثار نفسية ووجدانية عميقة على الشعوب الْمُسْتَعْمَرة، حيث كانت بمثابة اضطراب واسع النطاق على أساليب الحياة، وطرق التفكير، والأهم من ذلك على الثقافة وهوية الآخر، وتعتبر الدراسات التي قدمها "فرانز فانون Frantz Fanon" في كتاباته وخاصة "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء Black Skin, White Masks" و"معذبو الأرض The Wretched of the Earth"من أهم الترجمات المعرفية لحالة الهيمنة الإمبريالية على الشعوب الأخرى، انطلاقا من تفكيك خطابها الكولونيالي الذي يكشف لنا كيف يتغذى هذا الخطاب بالمرجعيات الإيديولوجية، التي أنتجتها الحداثة والثقافة الغربية، والتي ترى أن الشعوب المستعمَرة يجب إعادة تشكيل هوياتها الثقافية ضمنيا داخل هيمنة العالم الغربي، وإعادة بناء الإنسان الإفريقي والعربي، نحو إنسان أبيض، أي الصفة التي تحددت من خلال المرحلة الفكرية التي وصل إليها الفكر الأوروبي، والتي أخضعت كينونته للشعور بالتفوق، باعتباره صورة للحضارة السائدة.

من خلال هذا التقديم، ونظرا للأهمية التي يحتويها الموضوع، ارتأينا دراسته من جانبين، إبستيمولوجي متعلق بكيفية تفكيك وإدراك ماهية مقولات الخطاب الكولونيالي، ومن جانب أنطولوجي هو الكشف عن أبعاد وأثار مقولات هذا الخطاب في بناء كينونة الْمُسْتَعْمَرَ داخل العالم الكولونيالي، سواء من جانب العنصرية أو العنف أو باغتراب إنيّتة من موقع الهوية إلى موقع الغيرية، وعلى ضوء ذلك نطرح الإشكالية الآتية: ماذا نقصد بالخطاب

الكولونيالي؟ وماهي الآليات التفكيكية التي اعتمدها فرانز فانون في الكشف عن أبعاد مقولات الخطاب الكولونيالي في خطاب الثقافة الغربية وعلاقتها بالأخر؟

2. مفهوم الخطاب الكولونيالي

يشير هذا المصطلح Colonial Discourse إلى تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات، من نتاج يعبر عن توجهات استعمارية، إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب على أساس أن ذلك الإنتاج، يشكل في مجمله خطابا متداخلا بالمعنى الذي استعمله فوكو لمصطلح خطاب(الرويلي، البازعي، 2002، ص158)، وقد جرى تداول هذا المصطلح في حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية Post-Colonial Studies، بعدما وظفه "إدوارد سعيد Edward Said"الذي رأى في فكرة "ميشيل فوكو Michel Foucault "عن الخطاب وسيلة لوصف تلك المنظومة التي نشأ بداخلها ذلك المجال من الممارسات التي اصطلح عليه إسم كولونيالي.(أشكروفت، وآخرون، 2010، ص100)، وهذا في كتابه "الاستشراق The Orientalism"الصادر سنة 1977، محاولا تفكيك الخطاب الاستشراقي، من خلال الكشف عن عمل هذا الخطاب، ومقولاته المتجذرة في النصوص الأدبية، والطريقة التي تتشكل بها سلطة هذا الخطاب، من أجل خدمة أهداف الإمبريالية الغربية في التسيد على الآخر وإقصاء الثقافة الشرقية.

كما سعى في تفصيله أكثر المنظر النقدي لدراسات ما بعد الكولونيالية "هومي ك .بابا Homi K. Bhabha" داخل أعماله، وخاصة كتابه "موقع الثقافة The Location Of Culture" الصادر سنة 1994، في محاولة فهم وظيفة الخطاب الكولونيالي كشيء يأتي من علاقة إنتاجية، أي من عمليات التماثل بين الذاتي الذي يتجاوز التصنيفات البسيطة من حيث الْمُهَيْمِنُ/ الْمُهَيْمَنُ عليه، ويرتبط الخطاب الكولونيالي هنا بآليات التحليل النفسي حيث يصبح الوعي مكانا متناقضا للتماهي وعدم التماهي مع الآخر، (Basto, M, 2008 ,48)،ونشير هنا أن هذه المفاهيم قد وظفها "فرانز فانون Frantz Fanon" من قبل في التحليل النفسي، وذلك من خلال إبراز علاقتها بالمنظومة السياسية والثقافية كقضايا تمثيل الْمُشَكِّلَة لهوية الآخر Autrui داخل الخطاب الغربي.

إن الإمبراطورية بأطرافها لها خطاباتها العديدة والتي تحمل في داخلها شيئا لم يألف من قبل ولم يكن المركز الإمبراطوري مستعدا لسماعه لكن هذه الخطابات لا تنشغل بالاحتجاج فحسب، وإنما تمتلك في داخلها شيئا خاصا بها(الخليل، 2016، ص258)، ولعل هذه

الخصوصية التي تتميز بها خطابات الإمبريالية، هي التي جعلت أمثال إدوارد سعيد، وهومي بابا، وفرانز فانون، يخوضون في تفكيكها والكشف عن نوعية الخطاب الإمبريالي والكولونيالي وآثاره على الشعوب المستعمرة.

تحدد "أنيا لومبا Ania Loomba" تحليل الخطاب، انطلاقا من تتبع الصلات بين الظاهر والخفي، والمهيمن والمهمش، والأفكار والمؤسسات، وكيف يسمح لنا برؤية كيفية عمل السلطة من خلال اللغة والأدب والثقافة والمؤسسات التي تضبط حياتنا اليومية.(لومبا، 2007، ص58)، ومن خلال ذلك يمكن القول أن الخطاب الكولونيالي منظومة من المقولات التي يمكن إطلاقها عن المستعمرات والشعوب الْمُسْتَعْمَرَة، وعن القوى الْمُسْتَعْمِرَة، وعن العلاقة بينهما، وهو منظومة المعرفة والمعتقدات بشأن العالم الذي تحدث داخل أركانه أفعال الاستعمار. (أشكروفت، وآخرون، 2010، ص101).

من هذا التوضيح المفاهيمي، يمكن القول:" **أن الخطاب الكولونيالي ليس مجرد مصطلح جديد وهمي للاستعمار، إنه بالأحرى يدل على طريقة جديدة في التفكير تشترك فيها عمليات ثقافية وفكرية و اقتصادية أو سياسية معا في تشكيل وإدانة وتعرية الاستعمار**" (لومبا، 2007، ص64).

3. مقولات الخطاب الكولونيالي

الخطاب، بحسب ما نظر له فوكو،"منظومة من المقولات System of Statements" يمكن أن يُدْرَكَ العالم داخلها، وهو منظومة تُمَكِّن الجماعات المهيمنة في المجتمع من تشكيل مجال الحقيقة من خلال فرض معارف وحقول معرفية وقيم معينة على الجماعات الخاضعة لسيادتها(أشكروفت، وآخرون، 2010، ص101)، إن هذه المقولات هي تعبير لكيان موحد يؤسس لخطاب كولونيالي مُهَيْمِن، يهدف فانون إلى فضح هذا الخطاب، انطلاقا من تفكيك مقولاته المركزية التي هي صورة من الجانب العرقي المظلم للحضارة الغربية، هذه الحضارة التي تتنفس في العالم بأوهام زائفة تُسَوِّقُهَا من خلال إيديولوجيتها الحداثية، وقوتها الصناعية الاستهلاكية، التي تقوم بتشييئ الآخر La Réification d'autrui، أو كما يقول "إيمي سيزار Aimé Césaire "من أجل فهم نوعية هذا الخطاب:"علينا أولاً أن ندرس كيف يعمل الاستعمار على تفكيك الْمُسْتَعْمَرُ، على تجهيله بالمعنى الحقيقي للكلمة، والحط من شأنه، وإيقاظ غرائزه المدفونة، والطمع، والعنف، والكراهية العرقية، والنسبية الأخلاقية" (Césaire, 1955, p7)، وهكذا يمكن القول إن تفكيك الخطاب

الكولونيالي Deconstruction of Colonial Discourse هو النظر لعملية إنتاج المفاهيم التي تقصي الآخر، أي إنتاج أشكالٍ من الوسائل تنطلق منها الذات الكولونيالية لبسط هيمنتها، واستحضار المنظومة الثقافية والفلسفية والسياسية التي تشكل مبررا لهذا الخطاب، وتحدد نوعيته.

1.3. العنصرية الثقافية:

سيحاول فانون أثناء عملية تفكيك مقولة العنصرية Racism Statements، الحفر في أعماق جذور نشأتها داخل نسيج الثقافة الغربية، وربما كان منهج فوكو الأركيولوجي The Archaeological Method في الحفر عن أصل هذا المفهوم يفتتح أفقا نظريا داخل فلسفة فانون، لإعادة النظر في أصل مقولة العنصرية في جانبها الثقافي، باعتبارها بداية لكل عنصرية جسدية داخل الخطاب الكولونيالي:"فدراسة العلاقة بين العنصرية والثقافة تعني طرح مسألة الفعل المتبادل بينهما. وإذا كانت الثقافة هي مجموعة السلوكيات الحركية والعقلية الناتجة عن لقاء الإنسان مع الطبيعة ومع إخوانه من البشر، فلا بد من القول إن العنصرية هي بالفعل عنصر ثقافي" (Fanon, 1956, p122).

من خلال دراسة هذه العلاقة النسقية، ستكون لدينا هذه النتيجة الأساسية: إن خطاب العنصرية Racism Discourse هو حتمية لكل صدام ثقافي، بعناصره المادية أو المعنوية، فنحن نتحدث عن عنصر يتلف الآخر ويضعه في الهامش، من أجل الوقوف على مركزية الثقافة، ويصبح واجهتها، وهكذا سنبرز ظهور التسلسل الهرمي الثقافي، الذي يتم التأكيد فيه على وجود جماعات بشرية بدون ثقافة، وبناء ثقافات هرمية من الحضارة الأعلى إلى الأدنى، تتحكم في تحديدها الثقافة المركزية.

هذا التحول ليس نتيجة تغيير هرمي، تتبعه عناصر القوة فحسب، بل حتى موضوعي، أظهر تغييرا على ملامح العنصرية، داخل الدراسات العلمية، لتصنع إثباتات جديدة داخل حقل البيولوجيا، من أجل أن تغذي وجودها، وتبقيها حية، بل لتصبح شكلا من أشكال الوجود (Fanon, 1956, p p122-123)، ويقصد فانون هنا بالإثباتات التي جاءت نتيجة الثورة البيولوجية وسيطرة نظرية التطور The Theory of Evolution المتمثلة في النشوء والتطور عن طريق الانتقاء الطبيعي Natural Selection، والبقاء للعرق الأصلح the Preservation of Favoured Races، التي تم تنظيرها في كتاب تشارلز داروين"أصل الأنواع The Origin of Species" الصادر سنة 1859، والذي أخذ اتباعه لمواصلة التنظير للتطور

في علم السلالات، للوصول إلى فكرة مفادها أن العِرق الأبيض أفضل بيولوجيًا من الأسود، والبيض في مرتبة أعلى على سلم التطور،"ففي القرن الثامن عشر عندما تم تصنيف الأنواع المختلفة من البشر كجزء من مملكة الحيوان وفقا للمقياس الهرمي لسلسلة الوجود العظيمة، وكما هو متوقع، تم وضع الإفريقي في أسفل السلالات البشرية، بجانب القرد، وكان هناك بعض النقاش حول ما إذا كان ينبغي تصنيف الإفريقي على أنه ينتمي إلى نوع القردة أو الإنسان" (C. Young, 1995, p4).

لهذا، يتحفظ فانون عن وصف أو تعريف "للعنصرية الثقافية Cultural Racism"، كأحد إفرازات التحول الاقتصادي والاجتماعي للحداثة الغربية ومركزيتها،"والنظر على المستوى الثقافي إلى عواقب هذه العنصرية"، كشكل من أشكال الهيمنة الكولونيالية، أين سيعيد فانون صياغة السؤال التركيبي لهذا التحول، من خلال معرفة سلوك المستوطن اتجاه الآخر؟ حيث سيدرك لحظتها، أنه:"قد أسس نفسه في صميم عالم يتوجب إخراجه منه"(فانون، 2004، ص10)، فالخطاب العنصري لا يكتفي بتمثيل الإفريقي على أنه حيوان وفقط، بل كان يُنْظَرُ لهذه القارة التي يسكنها على أنها:"مرعى متوحشين، بلد موبوء بالخرافات والتعصب....بلد يسكنه أكلة لحوم البشر، بلد زنوج"(فانون، 2015، ص171).

استطاع فانون أن يستوعب هذا التجلي المعرفي لنظرة المستوطن الذي يضعه على الهامش، ويُشَخِّصْ أثره على جسده وروحه لأنه زنجي، أو بتعبير أدق لأنه واجهة لجماعة بشرية بدون ثقافة، متفقة علميا على أنها تتساوى مع منزلة الحيوان والوحوش:"أمي، انظري الزنجي، أنا خائف!!... يرمي الصبي الأبيض الصغير نفسه بين ذراعي أمه، وهو يقول:الزنجي سوف يأكلني"(فانون، 2004، ص122)، إن المناداة ب"زنجي The Negro" هنا، لا تحتوي فقط ردة فعل لخطاب كولونيالي، بل صدمة لقاء الثقافات، صدمة مواجهة المعنى المهين دائمًا، الموجود مسبقًا للرجل الأسود من أي ثقافة(Alessandrini, A, 1999, p149)، سيظهر هنا لقب "زنجي" ليس كدلالة لغوية تعبر عن بشرة الإنسان، بل عن التاريخ الثقافي لهذا الإنسان، كوحدة خيالية يحملها في ذهنه الإنسان الغربي الحديث، لتمثيل تاريخ استعباد الآخر وتهميشه، أو بتعبير أدق كما يحدده الفيلسوف الكاميروني أشيل مبيمبي Achille Mbembe بالقول:"إن إسم زنجي هو نتاج مكانة اجتماعية وتقنية ملازمة للرأسمالية منذ انبثاقها وتعميمها، اخْتُرِع للدلالة على الإقصاء، على الخبل والتحقير، لا بل على حد يجب تجنبه دائما".(مبيمبي، 2018، ص17).

لا يكف فانون في كتاباته، على التأكيد أن الرأسمالية والحداثة الأوروبية هما العلة المباشرة للتأسيس للخطاب العنصري،"فالحضارة الأوروبية وممثليها الأكثر كفاءة هم المسؤولون عن العنصرية الكولونيالية"(فانون، 2004، ص96)، فداخل هذه المقولة التي تدور حول دونية الآخر والطبيعة البدائية والمتخلفة لعرقه، تختبئ النوايا الحقيقية للخطاب الكولونيالي، من أجل الترويج للنموذج الغربي الحداثي كنموذج مثالي للوجود، ومن أجل الاستيلاء للأبد على أراضي المُسْتَعْمَرِين واقتصادهم، وهذا يسمح لنا كما تقول الناقدة أنيا لومبا:"أن نفهم أن الاستعمار الأوروبي الحديث ليس على أنه دافع عبر تاريخي من أجل الغزو، بل باعتباره نموذجًا لا يتجزأ من التطور الرأسمالي"(لومبا، 2007، ص35).

هنالك غزارة تحكم هذا الخطاب، كسجن منغلق يحمل معه ماهية الإمبريالية الغربية، التي تفصل بين القديم والحديث، وتريد قطع كل صلة مع ما هو قديم، فهو يؤسس لاختلال زمني، حيث تصبح العودة إلى الماضي الثقافي للمجتمعات المُسْتَعْمرَةُ انهيارا لحاضر الإنسان وكينونته:"فتأسيس الحكم الكولونيالي لا يؤدي بالضرورة إلى موت الثقافة الأصلية، بل على العكس من ذلك، يتبين أن الهدف المرغوب هو معاناة مستمرة أكثر من الاختفاء التام للثقافة الأصلية، هذه الثقافة التي كانت حية ومنفتحة على المستقبل...تتجمد في الوضع الاستعماري، وتقع في قيود القمع" (Fanon, 1956, p124).

إن شكل خطاب العنصرية الذي يهدف إلى إزالة الثقافة الأصلية لا يظهر بالصدفة أو بشكل متخفي، بل يتجلى في الآليات التي يعتمدها في تفريغ هذه الثقافة، والتي تظهر بشكل قصدي من خلال الممارسة الإقصائية، وإعادة تشكيلها، بعد تشويهها وقذفها في قالب البدائية، التي تجعل منها غير قادرة أن تتواكب مع الحداثة، ومع عالم الأبيض، وهنا يحلل لنا فانون:"الكيفية التي يتم فيها إعادة تشكيل المجموعة الاجتماعية، والثقافة الجماعية بشكل عميق من خلال وجود العنصرية" (Fanon, 1956, pp 125-126)، إذ لا يمكن للحضارة الغربية أن تحمل معها الشعوب البدائية، نحو التقدم وعالم التقنية، بدون بناء وعي بشكل قصدي لخطاب العنصرية.

ومن هذا التصور يصبح لمقولة العنصرية منطقها الذاتي الذي لا تشوبه شائبة:"أنها الاستغلال المخزي لمجموعة بشرية من قبل شخص آخر وصل إلى مرحلة أعلى من التطور التقني" (Fanon, 1956, p127).

2.3. العنف الكولونيالي:

إن الخطاب الكولونيالي هو خطاب عنيف بطبيعته، ويتغذى بوجود العنف، هذه المقدمة المنطقية التي ينطلق منها فانون أثناء تفكيكه للوضع الكولونيالي، لحظة تأمله في انقسام العالم الْمُسْتَعْمَرُ إلى عالمين، عالم مزدهر فيه مدينة جميلة وعالم متخلف فيه مدينة بلا حياة، والخط القاسم، أو الحدود الفاصلة داخل هذا العالم المانوي Manichaeist World،إنما هي "الثكنات العسكرية ومراكز الشرطة"، فالدركي والشرطي كما يرى فانون أنهما المرجع الْقَيِّم الشرعي الذي يستطيع الْمُسْتَعْمَرُ أن يرجع إليه وأن يخاطبه.(فانون، 2015، ص41)، وهي الجهة الناطقة بلسان الْمُسْتَعْمِرُ، ككيان عنيف ومؤسسة تُصَدِّرُ العنف.

تكمن قوة مقولة "العنف الكولونيالي Colonial Violence" كما يرى فانون في أنها تستمد شرعيتها من عقل مطلق، يؤكد وجدانيته من خلال خطابات التفوق والدونية superiority/inferiority للحضارات الأخرى، التي تستلزم إعادة إدماجها داخل هذا العالم بالقوة المادية والمعنوية،"فالْمُسْتَعْمِر لا يكتفي بأن يحد مجال الْمُسْتَعْمَر، باستعمال القوة المادية، أي بواسطة شرطته ودركه، وإنما هو يجعل من الْمُسْتَعْمَرِ جوهر الشر وخلاصته"(فانون، 2015، ص43)، كما لو أنه يبرر الطابع الشمولي للاستغلال الاستعماري، وهذا ما يؤكده "جان بول سارتر Jean Paul Sartre" في توطئة كتاب "معذبو الأرض"، عندما يوضح لنا كيف يصبح مبرر دونية الآخر دافعا لتأسيس خطاب العنف،"لأن الْمُسْتَعْمِرْ أقر مبدأ أن الْمُسْتَعْمَرُ ليس شبيه الإنسان"، لهذا لا يعتبر استعباده أو قتله جريمة (فانون، 2015، ص25).

وهكذا، لم يقتصر هذا العنف على اللغة المادية أو لغة العصا كما ذهب فانون إلى تشخيصه، بل على كل الوسائل التي كان يملكها الاستعمار في تجسيد هذا العنف وإبقائه حيا في لاوعي الْمُسْتَعْمَرِ، وتحديث كونه عالم عنيف همه الوحيد هو سحق الآخر وتدميره نفسيا، انطلاقا من تمثيل الأبيض لدونية الآخر في كتب التاريخ والأساطير":فحكايات طرزان، ومغامرات ميكي ماوس، وكل الجرائد المصورة، تنزع إلى ترويج حقيقي للعدائية الجماعية...يجري تمثيل الذئب، الشيطان، الجن، الشر، المتوحش، بزنجي أو هندي" (فانون، 2004، ص ص157-158).

يعتبر وصف سارتر لماهية خطاب العنف الكولونيالي في صناعة هذا التشوه الأنطولوجي،

أقرب للتمثيل عن حقيقة هذه المعاينة، حين يقول:"أن العنف الكولونيالي لا يريد المحافظة على إخضاع هؤلاء البشر المستعبدين، وإنما يحاول أن يجردهم من إنسانيتهم، وأن يقضي على تقاليدهم وثقافتهم"(فانون، 2015، ص25)، وندرك بناءً على هذا أن العنف الكولونيالي ينطوي على مظهر معرفي، أي أنه هجوم على الأنظمة الثقافية والفكرية والقيمية لدى الشعوب الْمُسْتَعْمَرة(لومبا، 2007، ص64).

لم تكن الوسائل التمثيلية للخطاب، الموجهة نحو الآخر عنيفة وفقط، بل كانت تُشَكِّلُ صدمةً وحدثًا عنيفًا يَتَمَلَّك الْمُسْتَعْمَر ويتسلط على إنيّته ويخضعها له.

كانت هذه الصدمات المجمعة للاستعمار والسينما كلاهما من منتجات الحداثة التي بدأ فانون في تنظيرها في بشرة سوداء، أقنعة بيضاء (Alessandrini, 1999, p150)، فالكولونيالية في شكلها الأنطولوجي هي عنف متجسد في شكل مؤسسة إمبريالية حداثية، وآلياتها المعرفية عبارة عن "صدمة Trauma" في حد ذاتها، ويتحدث هنا فانون عن العنف كمعطى فينومينولوجي، غير غائب عن ملاذ الوعي الإنساني، إنه العنف الأساسي الذي يجعل المشهد الكولونيالي يحدد الاضطرابات النفسية للْمُسْتَعْمَر، وفي تشخيص فانون لنفسية الْمُسْتَعْمَر يرى أن أعراض هذه المشاهد المؤلمة والصادمة، تجعله يشعر بالخوف عند النبش في الماضي، أي الخوف من عودة الصدمة وإعادة تكرارها، والسقوط في ملاذ الاكتئاب، هكذا يلخص فانون تجربة الصدمة.

إلا أن الوعي بهذا الخطاب يجعل ارتباطه بزمانية حدث العنف، سجنا أنطولوجيا لا يمكن للذات نسيانه، مما تقذفها في عالم العنف، الذي يعتبر جوهر هذا العالم، ويذكر لنا فانون قصة تمثل هذا التعيين السيكولوجي حول أثر خطاب العنف على روح الْمُسْتَعْمَر في هذا التحديد الأنطولوجي، وفي كيفية صناعته للعنف المضاد، والتي دوَّنَهَا في كتابه:"العام الخامس للثورة الجزائرية أو استعمار يحتضر A Dying Colonialism"، يتحدث فيه عن مجريات لقصة مؤلمة روتها صحافية سويدية كريستينا ليلستيرنا Christiana Lilliestierna، أثناء تحقيقها في معسكر ما بالجزائر:"أنه كان هناك صبي موسوم بجروح عميقة حدثت نتيجة ربطه بسلك فولاذي، بينما كان الجنود الفرنسيون يذلون ويقتلون والديه وإخوانه، في حين وقف ضابط يفتح عيناه بيديه بالقوة على ذاك المشهد، حتى يراه الصبي ويتذكره طويلا"، فمن شدة صدمة هذا المشهد على ذاكرة الطفل، أصبح يردد:"إنني لا أرغب إلا بشيء واحد، وهو أن أتمكن من تقطيع جندي فرنسي إلى قطع"، إذ يصبح من

الصعب أن تجعل طفلا في السابعة من عمره أن ينسى من قتل أقاربه، وأن ينسى انتقامه لموتهم معا(فانون، 1970، ص ص14-15).

لقد كان الْمُسْتَعْمِرُ يوجه خطاب العنف ضده من خلال صناعة إنيّة عنيفة للمُسْتَعْمَر، تحمل في شعورها أحقاد أجيال، ضد من سمع أو رأى القتل والتعذيب ضد أجداده وآبائه حتى ولو لم يعايشهم، كما يصف سارتر ذلك بالقول:"إن الأبناء، منذ الجيل الثاني، ما كادوا يفتحون أعينهم حتى رأوا أباءهم يتعرضون للضرب، وبذلك تكونت فيهم صدمات...مدى الحياة، وهذه التعديات المستمرة، لا تحملهم على الخضوع، وإنما تلقيهم في تناقض لا يطاق سيدفع الأوروبي ثمنه عاجلا أم أجلا"(فانون، 2015، ص27)، فكل نظام كولونيالي يُعَنِّف الأفراد، ويضعهم في قالب غير إنساني، سيشهد يومًا ما ظهور العنف ضده، ولأن الْمُسْتَعْمَر منذ ولادته، قد أدرك ماهية هذا العالم الضيق: "قد أَقَرَّ بأنه لا يمكن تغييره إلا بالعنف المطلق" (فانون، 2015، ص40).

من هنا، يتحقق النقيض من داخل هوية هذا العالم، ويتصل العنف بالآخر، فينطوي عنف الْمُسْتَعْمَرِ والْمُسْتَعْمِرِ داخل ماهية العالم الكولونيالي كعالم عنيف بذاته، فبعد أن كان الْمُسْتَعْمِرُ هو من يملك فكرا توسعيا يحاول من خلاله إزالة الآخر، ترتحل روح هذه الفكرة إلى الآخر كي تكتمل صورة العالم الكولونيالي في شكلها النهائي من خلال خطاب العنف، بأن يصبح الْمُسْتَعْمَرُ يملك نفس تلك الرغبة، هي إزالة الآخر المستوطن، وأن يتملكه ويتسيد عليه، ويأخذ كل ما يملكه:"فما من مُسْتَعْمَر إلا ويحلم مرة في اليوم على الأقل، بأن يأخذ مكان الْمُسْتَعْمِر"، هذا التعديل المنطقي الذي يدعو إليه فانون، ليس هو نفسه الذي يقف عليه الديالكتيك الهيغلي، من أجل تغيير محتوى العالم الاستعماري والحفاظ على مقولة العنف، بل هو عنف من أجل إنهاء خطاب العنف الذي يمثل جوهر هذا العالم، لأن الْمُسْتَعْمَر يتذكر دائما آثاره على بنيته النفسية، وأنه يعيه كلما اصطدم مع الخطابات التي تحقق وجود العنف، خاصة أن هذا الخطاب بشكليه المادي والمعنوي جَرَّدَ الْمُسْتَعْمَر من إنسانيته من خلال سياسة تشويه إنيّته، فكان لابد من إعادة تشكيل هذا العنف،"الذي سيطر على ترتيب العالم الكولونيالي، والذي عمل بلا كلل على تحطيم صور الحياة الاجتماعية لدى السكان الأصليين، وخرب بلا قيود طرز الاقتصاد، وأشكال المظهر والملبس"(فرانز فانون، 2015، ص43)، وإعادة بناء الإنسان الْمُسْتَعْمَر، كتعبير أنطولوجي داخل ترتيب هذا العالم الكولونيالي انطلاقا من هدم خطاب العنف بالعنف.

3.3. اغتراب الإنيّة:

بحسب فانون، إن الصدمة التي تسببها الأنظمة الكولونيالية هي تجربة وجودية تشكل عملية اغتراب الإنيّة نحو الغيريّة Alienation Self Toward Otherness، أي الإحساس بأن لها وجودا آخر في العالم، وتقذف به نحو وجود آخر مغاير لوجوده الحقيقي، وتخلق تطابقا بين ردود فعل سلوكياته، وطريقة تفكيره وثقافته، وتُحَوِّلُ وجوده من فعل زماني ومكاني إلى آخر، أي أن هنالك نتيجة منطقية تقف عليها مقولة هذا الخطاب، هي أن"الْمُسْتَعْمِرُ هو الذي صنع الْمُسْتَعْمَر وما يزال يصنعه" (فانون، 2015، ص40).

انطلاقا من هذه القضية التي يتأسس عليها الخطاب الكولونيالي، تنطلق تفكيكية فانون في كتاباته في البحث عن أعمق التساؤلات الإبستيمية Episteme، التي تشكل جوهر هذه العملية الاغترابية، "ماذا يريد الإنسان؟ ماذا يريد الإنسان الأسود؟"، التي من خلالها ندرك كيف تكون الطبيعة الإنسانية في حد ذاتها مغتربة، داخل الخطاب الكولونيالي، ونحن هنا لا نتحدث عن الرداء، الذي نلبسه داخل التمثيل الاجتماعي الذي يعبر عن هويتنا، بل عن طبيعتنا كبشر، وربما هذا ما جعل مقدمة كتابه"بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" تبدأ على النحو الآتي: 'كان يجب علي أن أعاني شعور إخواني الملونين، لأقول إن الأسود ليس إنسانا' (فرانز فانون، 2004، ص10).

هذه المقدمة أن الآخر ليس "إنسانا"، ستفتح المجال لعدة خطابات ستسجن هويته داخل قالب يكون فيه الزنجي أو الْمُسْتَعْمَر بلا قيمة وعدوا للحياة كما يقول فانون، فالدعوى بعدم إنسانيته وكائنيته، هي دعوى نحو تشييئه، وسلب كينونته، وتحويله إلى موضوع Subject، "فيصبح بدون وسيلة للوجود، وبدون سبب وجيه لوجوده"(Frantz Fanon, 1956, p125)، فالزنجي لأنه زنجي، ولأنه بعلة كونية ترعرع في عالم متخلف، قد أسس نفسه في عالم ليس له مكان فيه، لأنه نقيض عالم الأنوار، ولم يبلغ بعد عقلانية الإنسان الغربي.

يقف هنا الخطاب الكولونيالي من خلال مقولة اغتراب الإنيّة من وجهة نظر فانون على الفكر المانوي، أي أن ثنائية العالم تتركب من أصلين قديمين أحدهما النور والآخر الظلمة، أحدهما الخير والآخر الشر، الأبيض والأسود، فلابد للخير والأبيض أن تكون له منطقته الخاصة، "مدينة صلبة مبنية بالحجر والحديد، مدينة أنوارها ساطعة، وصناديق القمامة فيها ما تنفك تبلع نفايات ما عرفها الآخرون...شوارع مدينتها نظيفة، ملساء لا

ثقوب فيها ولا حجارة، إنها مدينة المستوطنين والبيض"، وعالم هذه المدينة التقني متقدم زمانيا أي "موجود في المستقبل"، لم يصل إليه بعد عالم الْمُسْتَعْمَر، الذي يسكن هذا الأخير في الماضي، في عالم بدائي، منطقة من اللاوجود هي:"مكان سيئ السمعة، يسكنه أناس سيئو السمعة، فيه يولد المرء أينما كان وكيفما كان، وفيه يموت المرء أين كان، وبأي شيء كان، هو عالم بلا فواصل، الناس يتكدسون فيه فوق بعض، والأكواخ تتكدس فيه فوق بعض، إنها مدينة جائعة...إنها مدينة زنوج، مدينة عرب".(فانون، 2015، ص ص41-42)، هذا الخطاب الذي يخلع الذات عن مكانها الأصلي، ويقذفها في وجود غير وجودها الحقيقي، ونحن نقصد بالحقيقي ذلك الوجود الذي هو موجود فقط في مخيلة الْمُسْتَعْمَر وفي أحلامه، هنا ندرك الكيفية التي ينطلق منها فانون في تفكيكه لمقولة الاغتراب، وذلك من خلال زحزحة المكان والزمان، كمقولتين ترنسندنتاليتين يشعر فيهما الْمُسْتَعْمَر بعدم جدوى وجوده في حيز العالم الإنساني، لأنه لا يتصل باللحظة الزمانية والموقع الصحيح مع الآخرين.

هذا الخطاب الأناني الذاتي Selfhood ينقل المُسْتَعْمَر للنقيض، في عالم غربي، حداثي، مثالي، توجد فيه كائنات بلا قيم تشوه الحضارة، أو كما صَرَّحَ ماير Meyer في الجمعية الوطنية الفرنسية وهو يصف الشعب الجزائري على هذا النحو، نقلا عن فانون قائلا:"أنه علينا أن لا نلوث الجمهورية الفرنسية بإدخال الشعب الجزائري إليها، ذلك أن القيم تتسمم على نحو لا يمكن إصلاحه متى جعلناها تحتك بالشعب المُسْتَعْمَر".(فرانز فانون، 2015، ص44)، ونحن هنا لا نشير معرفيا إلى مقولة العنصرية بشكلها التمثيلي الخطابي، بل نغدوا نحو خطاب يُحْدِثُ تلوين أنطولوجي على مستوى الذات، في مرحلة أعمق يتم فيها تحقيق الضياع للإنيّة، أو كما يصف فانون هذه المرحلة بالقول:"إننا نشعر في هذا النهج بالرغبة في التشييء، والتغليف، والسجن، والتكديس، عبارات مثل:"أنا أعرفهم"، "إنهم هكذا"، تعكس الحد الأقصى من التشييء الناجح"(Fanon, 1956, p 124).

من خلال هذه الرؤية الفانونية نستحضر مفهوم لوكاش الذي يعني بالتشيؤ تلك العادة الفكرية، أو ذلك المنظور المتصلب الذي يأخذ شكل عادة، عادة من شأنها تعريض الناس لفقدان القدرة على الارتباط بالأشخاص وحوادث العالم، هذه العادة كلما تعددت وانتشرت تحولت الذوات إلى مجموعة من الملاحظين السلبيين، بحيث يتبدى لهم العالم الاجتماعي والفيزيائي الذي يحيط بهم، بل وعالمهم الداخلي أيضا، في شكل مجموعة من

الكيانات الشيئية(هيونيث، التشيؤ، ص67)، أو كما يقول فانون:"أناسا مشاهدين تسحقهم فكرة أنهم ليس لهم ماهية" (فانون، 2015، ص40).

إن شدة هذا الاغتراب الكولونيالي الذي ينزل بالشخص-هذا الإنهاء لفكرة الفرد-تولد إلحاحا قلقا في بحث فانون عن شكل مفاهيمي يلائم ما تنطوي عليه العلاقة الكولونيالية من تناحر اجتماعي (بابا،ه، 2004، ص104)، فبالنسبة إلى المُسْتَعْمَر أو الزنجي، لا يوجد سوى مصير واحد هو مصير أبيض.

بالنسبة لفانون لا يكتمل هذا التقسيم المانوي وتحقيقه لعملية الاغتراب، بدون الوقوف عند دور اللغة، في تحديد هذا التغيير الأنطولوجي على الإنيّة، وتوجيهها نحو مصير غيري، مصير الثقافة الكولونيالية الفرنسية أو الغربية بصفة شمولية،"فالأسود الأنتيلي سيكون أكثر بياضا، أي سيقترب أكثر من الإنسان الحقيقي، بقدر ما سيمتلك اللغة الفرنسية... ويحصل في المقابل على العالم الْمُعَبِّرْ عنه والمتضمن في هذه اللغة"(فانون، 2004، ص20).

تجربة أنطولوجية يمكن قياسها على جميع المُسْتَعْمَرات، لأن مقولات النظام الكولونيالي مقيدة بنسقها، غير القابل للتجاوز من حيث البناء الفكري، فعندما يحدد النظام الكولونيالي جغرافية الشعوب المُسْتَعْمَرة، على أنها تنتمي ثقافيا وسياسيا للدولة الاستعمارية، "كالجزائر_فرنسية" أو "إفريقيا_الفرنسية" مثلا، يصبح هذا التماهي نتيجة لتحول نظرة الْمُسْتَعْمَرِ لذاته ولغة انتمائه، وتخضع هويته لتلوين تجعله تابعا للْمُسْتَعْمِرِ في اللحظة التي سيجعل من لغة الْمُسْتَعْمَرِ لغته الأصلية كتعبير عن جوهر حضاري.

هنا يظهر الحضور الهيدغري في فلسفة فانون، عندما يصطدم بمقولة "اللغة بيت الوجود"، أي أن تكون لغة"الأنا الكولونيالية"، المتفوقة على الآخر "الزنجي" حضاريا، هي الوسيلة التي يمكن من خلالها أن يُقْبَل به داخل هوية بيضاء:"فكل شعب مُسْتَعْمَر نشأت في صميمه عقدة الدونية، بسبب دفن ثقافته المحلية، يتموضع بإزاء لغة الأمة المتحضرة المستعمرة"(فانون، 2004، ص20)، ومن خلال اللغة يستطيع الموجود-هناك أن يحدد وجوده داخل العالم الغربي، وأن يسكن فيه، ويقوم بإعادة بناء إنسانيته بداخل هذا العالم، إنسانية بيضاء.

يمكننا أن نرى أنه في هذه اللحظة الأصلية من التجربة الكولونيالية، لا يمكن تجنب عملية الشعور بضياع وجودي، يدركه الْمُسْتَعْمَرُ عند الدخول في ديالكتيك العالم الكولونيالي، يصبح فيها الاغتراب أزمة دائمة ومدمرة للبنية النفسية، متصارعة بين واقعها وغايات

وجودها، فالخطاب المتمثل في التقليل من أهمية الثقافة المحلية وتهميش لغتها، باسم التقدم أو بربرية أساليب الحياة، تؤدي إلى فقدان كامل للإنيّة، وإلى استحالة إعادة بناء للهويات المضطهدة، حتى في حالات "ما بعد الكولونيالية".

4. الخاتمة:

وفي الختام، وبعد تحليل إشكالية الدراسة، التي تضمنت الآليات التفكيكية التي اعتمدها فرانز فانون من أجل الكشف عن أبعاد مقولات الخطاب الكولونيالي على الآخر نستنتج ما يلي:

أن الكولونيالية خطاب ورؤية، ووجهة نظر لعقل إستعلائي، تُظْهِرُ لنا هذه الرؤية كيف أن القوى الكولونيالية استخدمت أنظمة خطابية معينة، ومقولات محددة لتبرير هيمنتها وسلطتها على الشعوب والثقافات الأخرى، هذه الأنظمة الخطابية سعت إلى تأسيس نظام كولونيالي عقائدي مُفرِط في تقديس ثقافته وتفوّقه على الثقافات الأخرى، مما يجعله ينظر إلى الآخر بطريقة استعلائية ومُتميزة.

إن آليات فانون التفكيكية، سعت للكشف عن تعقيدات الخطاب الكولونيالي، انطلاقا من فحص دقيق لجوهره وماهيته، وإلقاء الضوء على معالمه وأسسه، وإدراك بنيته المتجذرة بعمق في ديناميكيات الحداثة الغربية، من خلال مجموعة من المقولات، تشمل العنصرية، والعنف الكولونيالي، واغتراب اللإنيّة، التي تعمل بمثابة ركائز أساسية يقف عليها هذا الخطاب، من أجل التسيد على الآخر، وجعله خاضعا وتابعا له، وأن نقد فانون لا يحدد لنا ماهية المقولات التي يتأسس عليها الخطاب الكولونيالي فحسب، بل يكشف النقاب عن آثاره النفسية والثقافية والوجودية على هوية المُسْتَعْمَر، تدعونا إلى إعادة تقييم جذري لمحتوى الخطاب الكولونيالي، وإعادة بناء النسيج الاجتماعي والثقافي في المرحلة "الما بعد الكولونيالية"، وتجاوز النظر لهذا الخطاب ومقولاته كحتمية أنطولوجية، تبقي على الأبيض سيدا، وعلى الزنجي عبدا، مجددين نهج فانون في تفكيك الهياكل القمعية المتأصلة فيه، مما يمهد الطريق لمستقبل أكثر موضوعية وعدالة، مستقبل تسقط فيه نظرية السيد والعبد.

المصادروالمراجع:

1-أشيل، مبيمي. (2018). نقد العقل الزنجي، تر:طواهري ميلود، ط1. الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع.
2-أكسل، هيونيث. (2012). التشيؤ،دراسة في نظرية الإغتراب، تر:كمال بومنير، ط1. الجزائر: مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع.
3-آنيا، لومبا. (2007). في نظرية الإستعمار وما بعد الإستعمار الأدبية، تر:مُحَمَّد عبد الغني غنوم، ط1. سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.
4-بيل، أشكروفت؛ جاريث، جريفيث؛ هيلين، تيفين. (2010). دراسات ما بعد الكولونيالية، المفاهيم الرئيسية، تر:أحمد الروبي، أيمن حلمي، عاطف عثمان، ط1. القاهرة، مصر: المركز القومي للترجمة.
5-جاك، ووديس. (1978). نظريات حديثة حول الثورة-فانون والثورة في إفريقيا، تر:مُحَمَّد مستجير مصطفى. بيروت، لبنان: دار الفرابي.
6-سمير، الخليل. (2016). دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
7-فرانز، فانون. (2004). بشرة سوداء، أقنعة بيضاء، تر:خليل أحمد خليل، ط1. الجزائر، لبنان: منشورات آنيب، دار الفرابي.
8-فرانز، فانون. (1970). سوسيولوجية الثورة، تر:ذوقان قرقوط، ط1. بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.
9-فرانز، فانون.(2015). معذبو الأرض، تر:سامي الدروبي، ط2. القاهرة، مصر: مدارات للأبحاث والنشر.
10-هومي، ك.بابا. (2004). موقع الثقافة، تر:ثائر ديب، ط1. القاهرة، مصر:المجلس الأعلى للثقافة.
11-ميجان، الرويلي؛ سعد، البازعي. (2002). دليل الناقد الأدبي، ط3. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
12- Aimé, Césaire. (1955).Discours sur le colonialisme. Paris: Présence Africaine Éditions.
13-Anthony, C.Alessandrini. (1999). Frantz Fanon Critical perspectives. London: Routledge.
14-Frantz, Fanon. (1956). Culture et racisme. 8/10 ,122-131 Retrieved from https://www.jstor.org/stable/24346894?read-now=1&seq=10.
15- Maria, Benedita, Basto. (2008). Le Fanon de Homi Bhabha- Ambivalence de l'identité et dialectique dans une pensée postcoloniale. sonia dayan-herzbrun, Vers une pensée politique post-coloniale, à partir de Frantz Fanon. (pp 47-67). paris: Editions Kimé .
16-Robert, J. C. Young. (1995). Colonial Desire, Hybridity in Theory, Culture and Race. London:Routledge.